الحاضر الحاصل • يعيث فيه الحسام القاصل • والله ما تهتز الحلف • الاما تعين للسلف • ولا مصير المجموع الا الى المتلف • ولامحيص من الهياط والمياط • والصياح والعياط • وجمع القراريط الى القراريط • والاستظهار بالوزعة والاشراط • والخبط والخباط • والاستكثار والاغتباط • والغلو والاشتطاط • وبناء الصرح وعمل الساباط • ودفع العمد وادارة الفسطاط • الا امل يذهب لقوة • وينسى الآمال المرجوة • ثم نفس يتصعد • وسكرات تتردد • وحسرات لفراق الدنيا تتجدد • ولسان يثقل • وعين تبصر الفراق وتعقل • قل هو نبا عظيم انتم عنه معرضون • ثم القبر وما بعده • والله منجز وعيده ووعده • فالاضراب الاضراب • والتراب التراب • وان اعتذر سيدى بقلة الحلاف • لكثرة الولد • فهو ابن مرزوق لا ابن رزاق • وبيده من التسبب ما يتكفل بامساك ارماق • اين الشيخ الذى يبلغ الانسان باجرته • فى كن حجرته • لا بل السوآل الذى لا عار عند الحاجة بمعرته • السوال والله اقوم طريقا • واكرم رفيقا • من يد تمتد الى حرام • لا يقوم بمرام • ولا يومن من ضرام • احرقت فيه الحلل • وقلبت الاديان والملل • وضربت الابشار • ونحرت العشار • ولم يصل منه على يدى واسطه السوء المعشار • ثم طلب عند الشدة ففضح • وبان شومه ووضح • اللهم طهر منها ايدينا وقلوبنا • وبلغنا من الانصراف اليك مطلوبنا • وعرفنا بمن لا يعرف غيرك • ولا يستهدف الا خيرك • يا الله • وحقيق على الفضلاء ان جنح سيدك منها الى اشارة • او اعمل فى اجتلابها اضباره • اولبس منها شاره • او تشوف لخدمة اماره • ان لا يحسنوا ظنونهم بعدها بابن ناس • ولا يغتروا بسمة ولا خلق ولا لباس • فما هلا عابدا تقضى العمر فى بجين وقيد • وعمرو وزيد • وضر وكيد • وطراد صيد • وسعد وسعيد • وعبد وعبيد • فمتى تنظر الافكار • وتنثر الزاد • وتلازم الاذكار • وتسام الانوار • وتتجلى الاسرار • ثم يقع الشهود الذى يذهب معه الاخبار • ثم يحق الوصول الذى اليه من كل ما سواه الفرار • وعليه المدار • وحق الحق الذى ما سواه فباطل • والفيض الرحمانى الذى ديمته الابد هاطل • ما شابت مخاطبتى لك شائبة تريب • ولقد محضت لك ما يمحضه الحبيب للحبيب • فتحمل جفاى الذى حملت عليه الغيرة • ولا تنظر لى عن غيره • وان لم تعذ دين مكاشفة سيادتك بهذا النث • فى الاسلوب الرث • فالحق اقدم • وبناؤه لا يهدم • وشانى معروف فى مواجهة الجبابرة على حين يدى الى رفدهم ممدوده • ونفسى فى النفوس المتهافتة عليهم معدودة • وشبابى ناجم • وعلى الشهوات مزاحم • فكيف بى اليوم مع الشيب • ونصح الجيب • واستكشاف الغيب • انما انا اليوم على كل من عرفنى كل ثقيل • وسيف العذل فى كفى صقيل • اعذل اهل الهوى • وليست النفوس فى القبول سوا • ولا لكل مرض دوا • وقد شفيت صدرى • وان جهلت قدرى • فاحملنى حملك الله على الجادة الواضحة • وسحب عليك ستر الابوة الصالحة • والسلام • انتهت الرسالة البديعة فى بابها الآتية من الموعظة بلبابها ذات النصيحة الصريحة التى يتعين على كل عاقل خصوصا من يريد خدمة الملوك التمسك باسبابها • **قلت** وقد رايت بخط الامام العلامة الخطيب ابن مرزوق على هامش قول لسان الدين اول الكلام واحسست منه فى بعض كتبه الخ ما صورته توهم ما لم يقع بل لما تخلت عنه سحب النكبة والامتحان جزمت بالرحلة وعزمت على النقلة • ونزعت عن خدمة السلطان • وملازمة الاوطان • قال ابن مرزوق العجب كل العجب ان جميع ما خاطبنى به ابقاه الله تحلى به اجمع • وابتلى بما منه حذر • فكانه خاطب نفسه وانذرها بما وقع له فالله يحسن لنا الخاتمة والخلاص انتهى • وكتب تحت كلام ابن مرزوق هذا بخط ابن لسان الدين على ما نصه صدق والله سيدى ابو عبد الله بن مرزوق كان الله له قاله ولد ابن المولف انتهى **قلت** وهذا الذى قاله ابن مرزوق كان فى حياة ابن الخطيب ولذلك دعا له بالبقا وبحسن الخاتمة والخلاص وقد اسفر الغيب عن محنته ثم قتله على الوجه الذى وصفه اثناء هذه الرسالة اذ قال واما ضده من عدو يتحكم وينتقم • وحوت بغى يبتلع ويلتقم • ومطلق عجب الهوى • ويطيل فى التراب الثوا • ونقباذ قيد يعض الساق • وشوبوب عذاب يمزق الابشار الرقاق • وغيلة يهديها الواقب الغاسق • ويجرعها العدو الفاسق • فعرض السوق • وسلعته المضادة الطوق • مع الاول الثالث فانه رحمه الله حصل له ما ذكر ثم اغتيل ليلا وخنقه فى محبسه عدوه الفاسق سليمان بن داود كما تقدمت الاشارة الى ذلك فالله يثيبه بهذه الشهادة وقد تذكرت هنا مرثية ابن صابر المنجنيقى وهى

هل لمن يرتجى البقاء خلود • وسوى الله كل شى يبيد
والذى كان من تراب وان عاش طويلا الى التراب يعود • فمصير الانام طرا لما صا
ر اليه اباوهم والجدود • اين حوا وابن آدم اذ • فاتهما الملك والثوى والخلود
اين هابيل اين قابيل اذ • هذا لهذا معاند وحسود • اين نوح ومن نجا معه بالفلك
والعالمون طرا فقيد • اسلمته الايام كالطفل للمو • ت ولم يغن عمره الممدود
اين عاد ام اين جنة عاد • ارم بن صالح وثمود • اين ابراهيم الذى شاد بيت
الله فهو المعظم المقصود • اين اسحق اين يعقوب ام • اين بنوه وعدهم والعديد
حسدوا يوسفا اخاهم فكاد • وامات الحاسد والمحسود • وسليمان فى النبوة والملك
قضى مثل ما قضى داود • ذهبا بعد ما اطاع لذا الخلق وهذا له الين الحديد
وابن عمران بعد ايات التسع وشق الخضم فهو صعيد • والمسيح ابن مريم وهو روح الله
كادت تقضى عليه اليهود • وقضى سيد النبيين والها • دى الى الحق احمد المحمود
وبنوه وآله الطاهرون الزهر صلى عليهم المعبود • ونجوم السماء منتثرات بعد
حين وللهواء ركود • ولنار الدنيا التى توقد الصخر خمود وللمياه جمود • وكذا للثرى غداة يوم

الناس منها تزلزل وهمود • هذه الامهات نار وترب • وهواء رطب وماء برود
سوف تفنى كما فنينا فلا • يبقى من الخلق والد وولید • لا الشقى الغوى من نوب
الايام ينجو ولا السعيد الرشيد • ومتى سلت المنايا سيوفا • فالموالى حصيدها والعبيد
واما قصيدة ابن عبدون الاندلسى التى رثى بها بنى الافطس وذكر فيها كثيرا من الملوك الذين اباد هم الدهر ومطلعها
الدهر يفجع بعد العين بالاثر • فما البكاء على الاشباح والصور
وبالجملة فالامر كما قال ابن الهبارية ۵
الموت لا يبقى احد • لا والد ولا ولد ۵ مات لبيد ولبد • وخلد الفرد الصمد
كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام اللهم اختم لنا بالحسنى وردنا اليك ردا جميلا
وتذكرت هنا مرثية على روى مرثية المنجنيقى السابقة ومنها
اين اهل الديار من قوم نوح • ثم عاد من بعدهم وثمود
بينما هم على الاسرة والانماط • افضت الى التراب الخدود
ثم لم ينقض الحديث ولكن • بعد ذا الوعد كله والوعيد
والاطباء بعدهم لحقوهم • ضل عنهم سعوطهم واللدود
وصحيح اضحى يعود مريضا • وهو ادنى للموت ممن يعود
ومما حكم قول السلطان ابى على بن السلطان ابى سعيد المرينى يخاطب اخاه السلطان ابا الحسن وقد حصره بسجلماسة حتى اخذه قسرا ۵
فلا يغرنك الدهر الخؤون فكم • ابادمن كان قبلى يا ابا الحسن
الدهر مذ كان لا يبقى على صفة • لا بد من فرح فيه ومن حزن
اين الملوك التى كانت تهابهم • اسد العرين ثووا فى اللحد والكفن
بعد الاسرة والتيجان قد محيت • رسومها وعفت من كل ذى حسن
فاعمل لاخرى وكن بالله معتصما • واستغن بالله فى سر وفى علن
واختر لنفسك امرا انت آمره • كانك لم تكن يوما ولم تكن
ودخل السلطان ابو الحسن سجلماسة عنوة على اخيه السلطان ابى على من سنة اربع وثلاثين وسبعماية وجاء به فى الكبل لفاس ثم قتله بالفصد والخنق فى ربيع الاول من السنة وكان القبض عليه فى المحرم رحمه الله ومما وجد مكتوبا على قصر بعض السلاطين ۵
قد كان صاحب هذا القصر مغتبطا • فى ظل عيش يخاف الناس من باسه
فبينما هو مسرور بلذته • فى مجلس اللهو مغبوط بجلاسه
اذ جاءه بغتة ما لا مرد له • فخر ميتا وزال التاج من راسه

رجع الى اخبار لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى **قلت** وقد زرت قبره رحمه الله تعالى مرارا بفاس المحروسة فوق باب المدينة الذى كان يقال له باب الشريعة وهو يسمى الآن باب المحروق وشاهدت موضع دفنه غير مستو مع الارض بل ينزل اليه بانحدار كثير ويزعم اهل فاس من عوام فاس ان الباب المذكور انما سمى باب المحروق لاجل ما وقع من حرق لسان الدين به حين اخرجه بعض اعدائه من حفرته كما مر وليس كذلك وانما سمى باب المحروق فى دولة الموحدين قبل ان يوجد لسان الدين وذلك بسبب ثاير ثار على الدولة فامسك واحرق فى ذلك المحل والله غالب على امره وحصل لى من الخشوع والحزن عند زيارة قبره رحمه الله ما الامزيد عليه جعل الله تلك المحن كفارة وطهرة فانه كان اية الله علما وجلالة وحكمة وشهرة وقد تذكرت عند كتبى هذا المحل رسالة كتبها بعض ايمة المغرب فى عزاء الوزير الشهير ابى جعفر ابن جبير الاندلسى رحمه الله تعالى الى بنيه وهى ما يصلح ان يوصف بمثلها لسان الدين رحمه الله تعالى وفيها عزاء لمن مضى ونصها عزاء ايها الكواكب الحدث بدركم الذى تخطفه الردى • وجمع بين الفضل والندى • فتصل للشهب ان تنكدر على فراقه وللصبح ان يخبو نور اشراقه • وللريح ان تمزق صدارا • وللاهلة ان لا تعرف ابدارا • وللليل ان يشتمل خميصة الحزن • وللسماء ان تبكيه بادمع المزن • وللرعد ان ينتحب لوفاته • وللبرق ان يحكى بزجفاته • ايتد عفا وللثريا ان ينفصم سوارها • وللشمس ان تنكسف انوارها • وللنثرة ان تنتثر كواكبها • وللجوزاء ان تنقض مناكبها • وللنيرات ان ترفض مواكبها • وللرامح ان يبيت اعزلا • وللبدر ان لا يالف منزلا • وللمجرة ان يفيض دمعا نهرها • وللغميصا ان يطرح بكاوها وسهرها • وللروض ان يفارق ازاهره • وللاورق ان يهتف بملامه • وللغصون ان تنهصر لهتفه • وتنقصف اسفا على حتفه • لكن هو الحمام يحل ويحتم ولا يغفل من يتم • يعدم ما اوجد الكون • ويديل من اكنفه الصون • واين بنا عن مكافح لا تقاتله ودوامر اوراحا معاقلة لا يد به ناصره • وعزمة قاهرة للقياصره • وهمة كاسرة للاكاسرة • لم يبق من رسم لطسم • ولا من احسان لغسان • ولا من اقاد لاياد • ولا من سلطان لقحطان • ولا من نجيب لتجيب ولا من شرف ضخم للخم • لم يكن لمعن اليمن اقتصار • ومنهم الانصار • وهم اصماع النبى وابصار • وعمدا الى المصابيح من مضر يطفيها • هذا والوحى يتنزل فيهما • ولم يصح فى التكذيب الى التصديق • واصمى الفاروق ببرداه وحكم بنيها الولوة ومداه • وامكن مرف الاقدار • من شهيد الدار • ولم يرع من على بالبسالة • والذبل العسالة • ولا بنى سبطيه وقد تفقات عنهما بيضة الرسالة • واذهب الزبير حوارى الرسول • وحنظلة وهو بايدى الملائكة مغسول • وافات ابن معاذ ولم يحفل بفوته • على ان اهتز العرش لموته • واودى بحمزة ومقعص من الشوق معقد الامرة • وشفى من عمار صدور الاشل • واردى ما لكا بشربة من عسل • ولم يعبا بمضاء عمرو • ولا علم معاوية ودها عمرو • فيا لامن خطب مود بكل يابس ورطب • يشرب ماء الاعمار • ويجعل الاجداث منازل الاقمار • ويلوك السوقة والاملاك • ولا يبالى باية لاك • لا يقبل شفيعا • ولا يغادر خطا ولا رفيعا • فها هو اعتمد نورا لا تكسفه • وطود حلم فنسفه • واعلق المجد فى حبالة • واقصد الفضل بنباله • ونجم كنانة بسهم لم يشتمل مثله من كنانة • فيطارف الاعين لقد بوئت باشرف الاخلاق • ويا ناعيه لقد نعيت باسق الاخلاق

King Saud University
Copyright © King Saud University